بهما، الى اصرار التعمري على مغادرة زوجته صيدا مع بداية الاجتياح الاسرائيلي، لكي تمنحه حرية التحرك دون ان يكون مقيّداً بالقلق عليها، الى مشاعر اللهفة والحنين التي اضطر الاثنان للسيطرة عليها لدى زيارة الكاتبة زوجها للمرة الاولى في المعتقل، خوفاً من عيون الرقباء والحرّاس، الى استلهام اسطورة بينلوبي (Penelope) اليونانية التي بقيت تنتظر عودة زوجها اوديسيوس من تجواله في البحار سنوات طويلة. هذه العاطفة، كانت، أيضاً، الدافع وراء مغامرة الكاتبة في الذهاب الى «الطرف الآخر» بهدف زيارة زوجها والاطمئنان على أحواله في المعتقل. ولا بدّ، هنا، من ان يسأل القارىء عمّا اذا كانت الزيارات تلك ـ بلغ مجموعها ستاً ـ ضرورية الى حدّ لا يمكن التراجع عنه، خاصة وان التعمري، شخصياً، لم يكن راضياً عنها، ولا مرحّباً بها، كما اخبرتنا الكاتبة بذلك في غير مناسبة. فالى جانب كونها نتيجة مبادرة فردية من جانب الكاتبة، على الرغم من اطلاع القيادة الفلسطينية عليها فيما بعد، فهي، أولاً وأخيراً، زيارات أُجريت تحت سلطة عدو يحتل الارض الفلسطينية بكاملها الى جانب مرتفعات الجولان وحوالى نصف الاراضي اللبنانية آنذاك. وترافقت هذه الزيارات، أيضاً، مع مذابح صبرا وشاتيلا وما سبقها من قصف وحشي متواصل للعاصمة اللبنانية، بهدف القضاء على الوجود الفلسطيني هناك، وما تبعها من شتات فلسطيني جديد وانشقاق داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية وتوزّع القوات الفلسطينية على عدد من البلدان. لا عجب، بالتالي، اذا رحّبت السلطات الاسرائيلية باقتراح الاميرة دينا عبدالحميد زيارة زوجها المعتقل داخل اسرائيل. فالكاتبة تتمتّع بمكانة اجتماعية وسياسية مرموقة على الصعيدين، العربي والدولي، نظراً الى انتمائها العائلي ووضعها السابق كملكة للاردن، وبالتالي كان من السهل عليها مقابلة رؤساء الدول وملوكها والزعماء الروحيين. فاذا استطاعت السلطات الاسرائيلية ان تخلق لدى الاميرة الهاشمية انطباعاً ايجابياً، فان ذلك من شأنه ـ حسب القناعة الاسرائيلية ـ ان يخفف من حدّة الاستنكار العالمي للاجتياح الاسرائيلي ومذابح صبرا وشاتيلا ومعاناة آلاف الأسرى والمعتقلين. كما ان وقوع عدد من جنود اسرائيل في الأسر الفلسطيني وحرص السلطات الاسرائيلية على ضمان سلامتهم وعودتهم الى اسرائيل كان، أيضاً، ضمن الحسابات والاعتبارات الاسرائيلية في هذا المجال. ومن هنا، كان اهتمام اسرائيل بتأمين ظروف «ملوكية» لزيارات الكاتبة لزوجها وترتيب لقاءات لهما مع عدد من الادباء والشعراء الاسرائيليين، بحضور اهرون بارنياع، والقيام بجولات «سياحية» داخل عدد من الكيبوتسات وبعض أحياء تل ـ أبيب. صحيح ان الكاتبة كانت تتصرّف، في تلك الاثناء، بدافع من عاطفتها الشديدة وقلقها على مصير زوجها، ولكن العواطف الصادقة العميقة كثيراً ما تصبح ضحية الاستغلال والمصالح النفعية؛ كما ان معاناتها الشخصية كانت، في الواقع، حالة عامة شاركتها فيها، وما زالت تشاركها، عشرات الآلاف من الامهات والزوجات والاخوات والبنات الفلسطينيات. هذا الى جانب ان الدور الذي قامت به الكاتبة ضمن المفاوضات بشأن تبادل الاسرى بين م.ت.ف. واسرائيل لم يكن العامل الحاسم في انجاح تلك العملية. وجاء تعبيرها عن مراسم استقبال معتقلي «أنصار» في الجزائر، بعد الافراج عنهم، والتي غابت عنها نتيجة سهو غير متعمّد بأنها (anticlimax)، في اشارة واضحة الى احساسها بشيء من «الفراغ» (ص ٢٣٦).

مقدمة الكتاب وضعها مؤلف الروايات الجاسوسية دافيد كورنويل، المعروف باسم «جون لوكاريه» والذي استلهم احداث روايته «قارعة الطبل الصغيرة» في اثناء زيارة قام بها العام ١٩٨١ لمراكز الاشبال في الجنوب اللبناني، بمرافقة التعمري وزوجته. وعلى الرغم من الملاحظات المذكورة اعلاه، ومن بعض الاخطاء المعلوماتية والتاريخية (معركة الكرامة حصلت في ١٩٦٨/٣/٢١ وليس في العام ١٩٦٧، وبشير الجميل لم يكن قد انتخب رئيساً للجمهورية اللبنانية في اثناء الحصار الاسرائيلي لبيروت في صيف العام ١٩٨٢، والحركة القومية العربية ضد العثمانيين بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر وليس في العشرينات من القرن الحالي)، على الرغم من كل ذلك، يبقى هذا الكتاب شهادة فخر واعتزاز بأبطال معتقل «أنصار»، وجميع الابطال المعتقلين والأسرى والشهداء في السجون الاسرائيلية.

مها بسطامي